

بين الكرامة وخصائص الربوبية:
وقفات مع نصوص من الموروث الصوفي الحضرمي

أ. د. مراد باخريصة - اليمن

تمهيد:

من أخطر أبواب الانحراف العقدي أن تتجاوز الأقوال في تعظيم الصالحين والعلماء حدَّ المحبة والتوقير المشروع، فتُنسب إليهم خصائص من خصائص الرب سبحانه وتعالى، أو يُجعل لهم من التصرف في الكون، والعلم بالغيب، والإحياء والإماتة، وقضاء الحاجات، والتشريع، والمغفرة، والشفاعة، ونحو ذلك، ما لا يكون إلا لله جلَّ وعلا. وبعون الله، سأقف في هذا المقال عند نصوص محددة وردت في عدد من المصادر المتداولة في الموروث الصوفي الحضرمي، وقراءتها من جهة دلالتها العقدية.

نصوصهم:

تحدّث عبد الباري العيدروس عن «طائفة من الأولياء يقال لهم: الْمُطْلَقونَ أي في التصرف، وطائفة يقال لهم: الْمُمَكَّنونَ لو عنده البحر يمكن يرده عذبًا»[1]، و«يخبرون بالمغيبات من أمور الدنيا والآخرة، والأحوال، والاطلاع على أهل السعادة وأهل الشقاوة»[2]، ويعرفون «حقائق قلوب الأولياء، والتطلع من اللوح المحفوظ، وأخذ المريدين من الذَّرِ قبل ورودهم وهبوطهم إلى أصلاب الآباء وبطون الأمهات»[3]، وأن أحدهم «كان يخبر أصحابه بما في بيوتهم وما يضمرونه، ويخبر أهله بما يخفونه عنه»[4]، وأن علي الحبشي «في حياته أمدَّ الكون كله، حتى الجمادات، فضلًا عن الحيوانات، ولم يزل مدده فيّاضًا حتى الآن على أهل الفيض»[5]، ويحكون عن علوي بن محمد بن علي «عمّا ظهر له من المكاشفات بعد موت والده، فقال: ظهر لي ثلاثًا، أحيي وأميت بإذن الله تعالى، وأقول للشيء: كن فيكون، وأعرف ما سيكون»[6]، وكان والده يقول له: «انظرني يا علوي، أنا شقي أو سعيد، وكان في صغره معروفًا بكرامات كثيرة وفراسات خارقة، منها أنه يعرف الشقي من السعيد، وشهد له أهل الكشف والفراسة والنور والفتح المشكور أنه ممّن يحيي الموتى بإذن الله، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وأنه ممّن أذن له في كمال التصريف المطلق بإذن الله، وكان من الأقطاب المتمكنين في الكشف والفراسة والمشاهدة، وتربية المريدين السادة، والاطلاع على العوالم والأسرار الإلهية، والبرازخ الملكوتية، والأنوار الأسمائية والجمالية والجلالية والكمالية، وشهد له المشائخ العارفون أنه من الذين يتصرفون في قبورهم كما يتصرفون في حياتهم»[7]، ويحكون عن والده «أنه قيل له وهو في تلك الواردات: كل نفس ذائقة الموت، فقال: ليس لي نفس، فقيل له: كلّ من عليها فان، فقال: ما أنا

١- بهجة النفوس في بعض كلام الحبيب عبد الباري بن شيخ العيدروس، جمعه: محمد بن سقاف زين الهادي، تريم للدراسات والنشر، مخطوط مصور، ص ٥٥.

٢- الكوكب المنير الأزهر في مناقب السادة آل محمد بن عمر، سالم بن أحمد بن علي بن عمر المحاضر العلوي، ص ١٦.

٣- مواهب الرب الرؤوف في مناقب الشيخ معروف، جمال الدين محمد بن عبد الرحمن بن سراج الدين جمال، مخطوط مصور، ص ٦٤.

٤-كنز البراهين الكسبية والأسرار الوهبية الغيبية لسادات مشايخ الطريقة العلوية الحسينية والشعيبية، شيخ بن محمد الجفري، تريم للدراسات والنشر، ص ١٣١.

٥- فيض الكؤوس من أنفاس الحبيب الإمام عبد الباري بن شيخ العيدروس مما كتبه عنه في خلال مجالسه محبه الفقير إلى الله عبد الله بن عوض بن محمد الراقي بافضل، تريم للدراسات والنشر، ص ٥٤.

٦- كنز البراهين الكسبية، ص ١٥٥.

٧- البرقة المشيقة في ذكر لباس الخرقة الأنيقة، علي بن أبي بكر السكران بن عبد الرحمن السقاف، طبع بمصر، ١٣٤٧هـ، ص ١٤١.

عليها، فقيل له: كل شيء هالك إلا وجهه، فقال: أنا من نور وجهه، وسمع أعرابيًا يقول: هل محمد بن علي هو الله، فقال: نعم، أنا الله، وخرّ مغشيًا عليه»[٨].

ويذكرون عن أبي بكر بن سالم في أحد مكاتباته أنه قال: «وقعنا في قول كن، فكان، ومن شهد أن الحياة والممات وأمر الكون كله من صفاتنا، هو الذي يفيد من خاض في علمنا»[٩]، وقال: «منذ خلَق الله هذا الهيكل، ما كتبت على مسلم سيئة، ووجودنا للخلق رحمة عامة وبركة شاملة»[١٠] ويقول: «وقد أعطاني حق التصريف في الكون كله، حيًا وميتًا، وقال: يا عبدي، ملكي ملكك، تصرف فيه حيث شئت»[١١]، «وقال في بعض مجالسه، بحضور جمع من الأعيان: إن الكون كله بيدي، مثل حبة الخردل، أقلّبه كيف شئت»[١٢]، ويقول: أنا حتف أهل الوصل تكرم عليّ باريها، أنا حتف أهل العدل ونار الجحيم أطفيها، من كان ينكر فعلي يجرب، وأنا حاميها، وعين الحقيقة عيني، وأشرب من كاسيها، وفخر الوجود الفخري أبو بكر لي يحميها، أنا عرشها والكرسي، وأنا للسماء بانيها[١٣].

ويقول أحمد بن عبد الرحمن السقاف:

ولي التصـــرف في التصوف والتعرف
فـــي التألـــف والجَمَـــالُ المُبْـــدَعُ

ولـــي الخلائـــق والحقائـــق والرقائق
والدقائـــق والخلائـــق تَخْضَـــعُ

ولـــي الســـماوات الـــعلا والحكم في
كل الـــملا ولـــي الخلائـــق تهـــرع

ولـــي المســـاجد والمعابـــد والمعاهـــد
والمشـــاهد والفضـــاء والبلقـــع

ولي المقامات الـــعلا وأنا لأصناف الملا
يـــوم القيامـــة أشـــفع[١٤]

ويحلف عبد الله بن أبي بكر العيدروس، فيقول: «والله إن الله أعطاني ثلاثة أشياء:

الأول: قدمي الطاهرة اليمنى دعست على رقبة كل ولي لله تعالى في جميع الزمان، من غير مبالاة.. وقال: والله إن بي المبشرات في السماوات من قبل مولدي بعشرين سنة، والله إني أعطيت عطية ما أعطيها أحد من قبلي ولا يعطاها أحد من بعدي»[١٥]، «وكان له الكرامات الخارقة، من إحياء الموتى والاطلاع على الخواطر، وإظهار المعدوم، وإنقاذ الغرقى»[١٦].

ويقول أحمد بن حسن العطاس: «ربي يطلعني على الذي أريده من جميع الأشياء، ولو كانت بعيدة»[١٧]، و«لما قربت وفاة الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، جئنا له بسبع سنين زيادة في عمره، فأبى من ذلك»[١٨]، ويقول مقسمًا: «إن بعض الصالحين من المشائخ أهل حريضة مات، وفي خاطري شيء منه، فو الله إنه طلع من التربة يترضاني»[١٩].

ويقول عبد الله بن علوي العيدروس: «ومَن نظر إليَّ بصدقِ اعتِقادٍ، حَرَّم الله جسَدَه على النَّار»[٢٠]، ويحكون عن أحد فقراء الشيخ سعيد بن عيسى العمودي أنه «زنى مرة، فندم على ما فعل، ولام نفسه، وخرج من القرية.. فعلم الشيخ بقصته، فقال له: انزل، فإنه قد عفا الله عنك، ولم تكتب»[٢١]، وكان أحمد بن عمر الهندوان «**يرى ذنوب الناس مكتوبةً على جباههم**»[٢٢]، «وإذا وقعت في شدة فقل: يا عمر، فإنك إذا قلت: يا عمر مثل أن تقول يا الله»[٢٣].

نقد وتقييم:

فهذه العبارات لا تقف عند إثبات الكرامة؛ لأن الكرامة، مهما عظمت، لا تجعل العبد مالكًا لأمر الكون، ولا تجعل الحياة والموت من صفاته، فالله سبحانه هو المنفرد بالخلق والتدبير والإحياء والإماتة، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقول «**كن فيكون**» من خصائص قدرة الله وأمره الكوني، ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ

٨- كنز البراهين الكسبية، ص 651.

٩- النهر المورود في مناقب الشيخ أبي بكر بن سالم فخر الوجود وأولاده وأولاد أولاده أرباب الشهود، جمعه: الحسن بن إسماعيل بن علي الحامد ابن الشيخ أبي بكر بن سالم، مخطوط مصور، ص ٧٠٤.

١٠- الزهر الباسم في ربى الجنات في مناقب سيدنا الشيخ أبي بكر بن سالم صاحب عينات، عبد الله بن أبي بكر باشعيب، كتبها: عمر بن عبد الرحمن الصافي، ١٤١٦هـ، ص ٧٦٢.

١١- الزهر الباسم، ص ٧٠.

١٢ - المصدر السابق، ص ٢٧٢.

١٣- - الجواهر في مناقب الشيخ أبي بكر تاج الأكابر، عبد الله بن أحمد الهدار، دار الفكر الحديث للطباعة والنشر، القاهرة، ص ٩١.

١٤- عقد اليواقيت الجوهرية وسمط العين الذهبية بذكر طريق السادات العلوية، عيدروس بن عمر بن عيدروس الحبشي، المطبعة العامرة، مصر، ١٣١٧هـ، ١/٢٥١.

١٥- عقد اليواقيت، ١/٧.

١٦ - فيض الأسرار واقتباس الأنوار من معاني منظومة سيدنا الإمام الشيخ عمر بن عبد الرحمن البار في ذكر مناقبه ومناقب جده القطب الشيخ عمر بن عبد الرحمن ومن فيها من الأبرار كالمقدم والسقاف والعيدروس والعطاس والحداد والمحضار، عبد الله بن أحمد باسودان، مخطوط مصور، ٨٨/٣.

١٧- نفائس الأنفاس الملتقطة من كلام الحبيب الإمام أحمد بن حسن العطاس، جمع: عبد الرحمن بن محمد عرفان، نقله: سالم بن عبد الله بن محسن العطاس، ١٤٣١هـ، مخطوط مصور، ص ١٦١.

١٨- نفائس الأنفاس، ص ١٦٥.

١٩- المصدر السابق، ص ١٥٣.

٢٠ - القول المروي المأنوس في تراجم آل عبد الله بن علوي ابن الإمام عبد الله العيدروس، ص ٤٤.

٢١- رائس الوجود ومراءة الشهود في بعض مناقب العارف بالله القطب الفرد الجامع مولانا وشيخنا الشيخ سعيد بن عيسى العمودي، سعيد بن أحمد بن محمد الخطيب، مخطوط مصور، ص ٧٧.

٢٢- تحفة الأحباب وتذكرة أولي الألباب بذكر نزر من مناقب العارف بالله الوهاب الحبيب علوي بن عبد الله بن عيدروس بن محمد بن شهاب ومناقب مشايخه وآبائه وعمومته السادة الأطناب، عمر بن علوي الكاف، ص ٢٠٣.

٢٣- فيض الأسرار، ٤/١٠٤.

نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

ولا إشكال في أصل إثبات الكرامة أو الفراسة التي قد تقع لبعض الصالحين، لكن الإشكال في تحويل ذلك إلى تصريف عام، أو علم بالمغيبات على وجه يتجاوز ما دل عليه الشرع، ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]، فالفراسة شيء، ودعوى الإحاطة بالمغيبات والخفايا شيء آخر، ومن هنا ينبغي ألا تُستعمل كلمة (الكشف) لتجاوز الحدود التي رسمها الوحي لمجال علم الإنسان، فالعبد مهما بلغ مقامه يبقى عبدًا لله، كما قال تعالى في وصف أكمل الخلق صلى الله عليه وسلم: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، والواجب في مسائل التوحيد تعظيم شأن الألفاظ، وعدم إطلاق العبارات الموهمة في حق الله تعالى، لا سيما إذا كانت تتضمن في ظاهرها ما يناقض أصل التوحيد؛ لأن هذا النوع من الخطاب لا يكتفي بتعظيم الصالح، وإنما يصنع له مقامًا استثنائيًا لا يكاد يترك مجالًا للحدود التي تضبط مقام الإنسان.

وهذه النصوص، عند جمعها، تكشف عن إشكال منهجي ينبغي الانتباه إليه: فليس كل خارق للعادة إشكالًا عقديًا، وإنما الإشكال فيما يُبنى عليه من اعتقاد، أو ما يُنسب إلى صاحبه من خصائص، فمن الممكن أن يقال: أكرم الله عبدًا بكرامة، فاستجاب دعاءه، أو وقع له أمر خارق للعادة؛ فهذا أمرٌ معلوم، أما أن يقال: له «**التصريف المطلق**»، أو «**أحيي وأميت**»، أو «**أقول للشيء كن فيكون**»، أو «**أمر الكون كله من صفاتنا**»، و«**إذا قلت يا عمر مثل أن تقول يا الله**»، فهذه ليست مجرد حكايات عن كرامات، بل عبارات تتعلق بخصائص الربوبية والغيب والعبادة، ولذلك لا يصح أن تمر دون نقد عقدي، فالكرامة شيء، وتحويل الكرامة إلى صفة ملازمة لصاحبها في العلم والتصرف شيء آخر.

كما أن إضافة عبارة «**بإذن الله**» لا تجعل كل خارق صحيحًا تلقائيًا؛ لأن الكلام ليس عن حادثة خارقة حتى يقال: وقعت بإذن الله، وإنما عن نسبة الحياة والموت وأمر الكون إلى أنها من صفات المتكلم ومن معه.

والقول إن ذلك كان «**بإذن الله**» لا يحل الإشكال كله؛ فلا أحد ينكر أن ما يقع في الكون لا يقع إلا بمشيئة الله، والله سبحانه وتعالى لم يجعل هذه الخصائص أوصافًا لعباده، فالخلق لا يكون صفة للعبد، ولا يجعل علم الغيب صفة للعباد، ولا يجعل الإحياء والإماتة ملكًا لأحد.

والغيب ليس مجالًا يتنافس فيه الأولياء، ولا رتبة يصعد فيها الإنسان حتى يصبح عالمًا بما سيكون، وما يعلمه الإنسان من أمور خفية إنما يعلمه بقدر ما أطلعه الله عليه، أما العلم بالمغيبات بوصفه مقامًا للعبد فشيء آخر، ولا يصلح أن يتحول الاستثناء إلى أصل، ولا الواقعة إلى صفة، ولا الكرامة إلى ربوبية، ولا الولاية إلى سلطان على خصائص الله.

إن تعظيم الله جلَّ جلاله يقتضي أن تكون الحدود بين الخالق والمخلوق واضحة، لا يختلط فيها مقام الربوبية بمقام العبودية، مهما بلغ العبد من الصلاح والولاية، وإلا فما الذي بقي من معنى الافتقار إلى الله إذا أصبح الناس يعتقدون أن كل هذه الصفات يمتلكها عبد من عبيد الله؟ وإذا كان من حق الصالحين أن يُحبوا ويُوقروا، فإن من أعظم حقوق الله تعالى ألا تُنسب إلى عباده خصائصه، وألا تَجعل لهم قدرة مطلقة في الكون، ولا علمًا بالغيب، ولا حقًا في المغفرة، ولا قدرة على قضاء الحاجات على نحو يشبه ما لله تعالى.

ولهذا، فإن القضية ليست في محاربة الأولياء -معاذ الله-، ولا في الانتقاص من الصالحين، وإنما في حماية جناب التوحيد من الغلو في الصالحين.

ولا ينبغي أن يتحول تعظيم الأولياء إلى إنشاء أسباب للنجاة لم يجعلها الله أسبابًا شرعية، ولا إلى إعطاء الأشخاص ضمانات أخروية لا يملكونها، فالفرق كبير بين أن يدعو الولي للعاصي بالمغفرة، وبين أن يخبره أن ذنبه قد غُفر وأنه لم يُكتب عليه؛ لأن الثاني إخبار عن حكم غيبي لا يملكه الإنسان من عند نفسه.

ومن الإنصاف القول إن أصحاب هذه الطريقة يحاولون تأويل هذه العبارات الغالية، وينصّون على أنها من الشطحات، ولكن مقتضى ذلك أن تُطوى ولا تُروى، وتُخفى ولا تُذكر، وليس أن تُطبع وتُصوَّر وتُنشر، كما أن من الإنصاف ألا يُغلق باب النقد حولها ما دامت كذلك، فالعدل أن نحاكم الأقوال إلى أصول التوحيد، لا أن نحاكم التوحيد إلى الأقوال.

والمقصود من هذا كله ليس الإساءة أو الانتقاص من أحد، ولا الحكم على الجميع بحكم واحد؛ وإنما التنبيه إلى أن محبة الصالحين شيء، ورفعهم فوق مقام العبودية شيء آخر، فنحب العالِم، ونوقر الولي، ونحفظ للصالح فضله، لكننا لا نعطيه ما لم يعطه الله، ونحترم الآباء والمشايخ والأعلام، لكن احترامهم لا يعني أن نسكت عن عبارة نُسبت إليهم تتضمن تجاوزًا في حق الله سبحانه وتعالى.